

## أثقل من الحجر

منذ سنة او أكثر، لم تطأ قدم ارضي. قبل ذلك كنت أعجّ بهم، أولئك الذين سكنوا داخلي ولم يغادروني لليلة واحدة، ولا حتى حين رحلوا عني.

كانوا يظنون أنني ثابت مثلما تركوني، لكنهم جهلوا ان الغياب يصعب على الحجر. في كل ليلة بعد غيابهم، عدت الفراغات بدل الخطوات، كنت احرس فيها الصمت كأنه اخر ما تبقى لي منهم. لم أخف يوم هدمت الجدران، بل ارتعبت من فكرة نسيان اللحظات التي جعلت مني بيتاً.

لا تقولوا إنني نجوت. النجاة تعني ان شيئاً ما بقي كاملاً. فلا تصدقوا ان البيوت لا تموت دفعةً واحدةً.

أنا ما تبقى، أنا ضلعٌ مكشوفٌ من جسد كان يسمى بيتاً. كنت بيتاً كاملاً والآن... سقطت طمأنينة، كنت أحتضن بها قلباً صغيراً، وانكشفت الحياة كما تنكشف العظام تحت جلده ممزق. سمعت إخوتي بين ضجيج الذكريات وقهقهة السنين، كان أئيناً عميقاً يشبه استسلاماً، حاولت مرافقتهم فتشققُ وارتجفت، لكنني بقيت. هل كنت محظوظاً؟ ام كان عقاباً؟ لا زلت اسمعهم حتى الآن، اسمعهم يعاتبونني: اتحسب البقاء بطولة؟ لماذا تمسكت؟ لا، البقاء ليست ببطولة، بل إنه حمل ثقيل.. ثقيل جداً.

أتعرفون ان للبيوت أصواتٌ ايضاً؟ أصوات الذكريات التي مرت، تلك التي ما زلت احتفظ بها؛ اذكر كذلك صوت اللحظة الذي أدرك فيها صاحب البيت أنّ الغرفة، لم تعد غرفة، أن سريره صار تحت السماء، وأن صوره أصبحت غباراً.

لأول مرة بعد غياب طويل، عاد صاحب البيت. كان يمشي ببطء، كأنه يدخل الى مقبرة، ولكنه يكابر، يكابر لكيلا يعترف بأنها مقبرة. أذكر وجهه. كان يتنقل بين الركام، ومع كل خطوة كان يكبر فجأة، وفي دقيقة واحدة، كُبر أعواماً. لم اره هكذا من قبل. انحنت كتفاه، بحثت عيناه عن زاوية يعرفها ويدركها، لكن لم يبق شيئاً يراه. سابقاً كان يمر بجانبني من دون ان يلتفت، متأكداً أنني سأبقى له دائماً. اقترب مني، دل بنظراته، وكأنه يرى طفولته، مدّ يده ببطء، مرتعشاً، متوتراً، خائفاً ان يوقظني من موتي. لم أمت بعد! بل كنت ارتجف. شعرت أنني انا من أحتاجه للاتكاء عليه، فكلانا خسر ما ينتمي اليه.

أتعرفون ما أصعب من السقوط؟ ان تبقى لتشهد، ان ترى حنين المكان، ان ترى إنساناً يحاول أن يظهر القوة أمام أنقاض طفولته، وذكرياته التي تلاشت مع غبار الركام التي حملتها رياح الزمن. ذلك الزمن الذي يمر كأنه يختبر صلابتي، الذي يحمل معه سؤالاً لا يقال: " اين اضع قلبي الآن؟ "

أنا ما تبقى من ذلك المكان.

أحياناً، اتمنى لو أنني كنت كجيرياني، لو عدت تراباً بلا ذاكرة، لو نسيت شكل الغرفة التي كانت تحتويني، لكنني اصبحت أثراً لها، مكشوفٌ للسماء، يمر المطر من خلالي، والبرد يعرف طريقه إلي، لكن الذاكرة لا تزال عالقة بين شقوقي؛ أشهر بنقلها مرت وصلابتي تتداعى... لربما تلك الذاكرة هي التي تمنعني من الانهيار، فأنا آخر من يتذكر شكل الضحكة وهي ترتطم بي، آخر من يتذكر ان هذا الفراغ كان يوماً ما.. حياة.

مرّ زمن قبل أن يعود، فبدا صاحب البيت اطول، اهدأ، يحمل حزنه في أطراف مدامعه، يحاول مكابراً ان يتجاهل حقيقة ان ذكرياته هنا، في هذا البيت، قد تلاشت الى قطع مبعثرة كجدرانه. وقف امامي طويلاً، وكأن بيننا عتابٌ، يعاتب حنينه الذي

تحول مع فُتاة الحجر الى آلامٍ لا يمكن كتمانها، فألام الحرب يمكن للمرء أن يفهمها، ولكن حين تأتي من الحنين، يسقط حارس المشاعر، وينكسر وجه التظاهر بالقوة. أتدرون كيف يصبح الانسان بعدها؟

كنت أراقبه وهو يعود الى هنا مرارا وتكرارا، باحثاً عن نفسه، لا عن اثاثٍ، ولا عن حجارة. من دون دماء نرف ببطء، فإن ذكرياته اقتلعت فجأة، ليس بصور كانت معلقة، بل بجذور زرعها منذ اول كلمة قالها، اول خطوة داس فيها ارض المكان الذي احتواه لسنين، وها هو الآن، يحاول الصمود واقفاً امام لا شيء، لربما يرى ما علّقه في ذهنه. فهناك اشياء لا تعلق على الجدران، بل ترتسم في الروح، كلوحةٍ لا يبهُت لونها مهما جار عليها الزمن. أضحكات كانت ام صرخة أمّ او بكائها؟ تلك لم تسقط لا مع جدار ولا مع سقف، غرزت أعماق صاحب البيت، كلما زارني.

فهمت حينها أن دموعه لم تكن على فقدان الحجر، ولا خسارة أثاث، بل على تفكك المكان الذي احتواه وذكرياته، تلك الذي زرعها كبذور وردٍ تألقت في الديار. فهمت حينها، انني إذا سقطت أنا أيضاً، لصار الماضي شكّ، وتحول المكان لأرضٍ جرداء، تخلو من كل شيء الا هويةً رافقتها لسنين. أنا لم ابق لأنني أصلب، ولا لأنني أقوى، بقيت لان أحدا كان يجب ان يحرس المعنى. أنا بقيت لأقول له كلما عاد: " هنا كنت انت، هنا كان اسمك يُنادى، هنا تعلمت ان تحلم."

أنا الجدار، وهو الانسان،

كان كل شيء معلقاً عليّ.. لكنه كان متشبثاً داخله أكثر..

أنا ما تبقى من بيت، نصف ذاكرة ونصف وعد. لعل هذا البيت يبني ثانية، لأذكر الحجارة الجديدة بأن القوة تدوم مع الحب رغم الخوف. أنا الجدار الذي لم يسقط، ربما لا أفتخر بذلك، ولكن البيت الذي يهدم في لحظة، يبني في لحظة، أما الانتماء فيحتاج الى عمرٍ كاملٍ كي يُنتزع. ولأن الانتماء لا يموت الا مع شخصه؛ فأنا، رغم كل شيء، ما زلت بيتاً.

بيسان محمد قوصان

ALBA – académie des beaux-arts